ح

الجزء الثاني

الثمن ٣٠ مليما

مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض
قسم الكتب العربية
الرقم العام: ١٢٥٩٦٣
رقم التصنيف: ٨١٠ ١٩٦٤

# الديوان

كتاب في النقد والأدب

يتم في عشرة أجزاء

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد — محرر بجريدة الاهرام

و

ابرهيم عبد القادر المازني — محرر بجريدة الاخبار

فبراير سنة ١٩٢١

يحس أنه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها وأوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط في الحقائق نفسه ولا يحب أن يستسقى إلا من الصب أو يأخذ الا من المعدن مؤثرا الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر الى اضدادها — لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون أضوأ لها وأكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع. اذ ماخير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الاوهام والذهاب الى أشنع الشناعات واسوأ المنكرات ما عرض لهم فى الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضاً من غير ان يتوخى فى تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعى به كاتباً وشاعرا ومؤلفاً يضن الزمان بمثله ويعيى الامم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى تنبيه أو ان يتجشم أحد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسط فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادىء وتفصيل الأصول وما ندرى غداً بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا رأونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار دستوراً معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائه غنيان ؟ افلا يعذرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهي تحسبها أدوات الكر والطعان ؟ بلى ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الاذهان

ولماذا لا يرون من أعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء المقلدون فى أمر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة له ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعه التى تتمخض عنها الطبائع المسوخة

والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها والادب شيء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لأن مرده الى أصول الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث فى كل لغة فى أى قالب صبيته وسبكته وبأى لسان نطقته

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الأمال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال

## ترجمة المنفلوطى

عني السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الامر الا من حيث دلالته على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الالقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا أن يزفوا الى الناس عرائس افكارهم أو يشيعوا الى قبور صدورهم أموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لآثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق أن يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر رواياته وقصصه فى أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الأوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقاريء علي مبالغ سعة المجال :

***

السيد مصطفي لطفى المنفلوطي رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة وأربعين عاما من أبوين كريمين كرما يثبته ان أولهما — ولا ندرى ايهما يعنى ولكنه احدهما على كل حال — ينتهى نسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم

ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل و« تفاقم » الذرية . وثانيهما الى اسرة جوربجي التركية «المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل »

ولم ير السيد زاده الله شرفاً ورفعة لسوء حظ الا قد ان يزيد على هذا فى بيان نسبه الأشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر » وان اسرته هناك « مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » — فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى الى معرفة ما هنا لك ولكنا نحسبه خشي أن يضل القارىء ويختلط عليه الامر فيتوهمه مقذوفاً به الينا من المريخ — والحق ان له العذر فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل على انه مثل ابناء آدم احساساً بالحياة وفهما لها وجريا على سننها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته فنقول وليته اذ عنى بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ماهو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية فى تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بانها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفاً وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لا تعجبه اخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره وعفة حتى عن مديده الى ابويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفاً فاذا غضب وقليلا مايفعل فهو الليث قوة وشجاعة وايمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على مايذهب باب الحكيم من حوادث الايام فقد مات له طفلان فى اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الي أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين له ولا أحقر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب وكثيرا ما كنت أسمعه ( ! ) يقول « لاطلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أو يعجب برأيي البليد الى آخر مالا يستكثر على سليل النبوة العربيه والفتوة التركية

ولكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الأدب الجم الذى جعله ـ كما يقول ـ « الكاتب الفريد الذى يحافظ على اسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقه لكتاب العربية الاولى أوالتي لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه

وليس فى ان يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف النسب لا يحدث الاعن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وأمسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف ابائهم . أما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علماً فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا في تاريخ حياته يقع فى اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر انه أورد اسم أبيه حتى ولا في سياقة الحديث دع عنك خلع حالل الثناء على أجداده . ولقد جعل وكده أن يشرح لقارئه ادوار نموه العقلى وكيف تكونت اخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو مايعنى قراء التراجم . أما الاجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوي أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم اكثر من الاسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم استار الخفاء حتى لا يجمع الي الجهل أو العجز نقيصة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء

على أنه ان فاتنا هذا الذي كنا نحب ان لاتخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو مشنوء ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركي الحسينى الجوربجي المنفلوطي الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفا عن ارائه وأخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شيء يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه في غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها في المقالات !!

ويالها من شجاعة لاتجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم!
فهل تعرف أيها القارىء من أي ضروب الشجاعة هـذه فان لها لانواعا وضروبا ؟
ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وإنمـا هي شجاعة .... الطعـام !! نعم والموائد الممدودة والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارىء اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما بين عينيك لتدل بذلك علي أفحش الجهل وأفضحه بأسرار فعل الطعام . ولـكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى أن يخشى السيد الشريف الحسيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقاً ان تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامي القائل « اطعم الفم تستحي العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجري على السنن العامية فى كل شيء ؟ فى كتابته وفي معاشرته وفى اتقائه الالسن ـ وهذا هو السر — فاعلمه — فى أنك لا تسمع به فى هـذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هـذا الـكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وأرسل يلح علينا فى « تشريفه » فلم ينقـذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته إلا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الاحيان !

## ﴿ الحلاوة والنعومه والانوثة ﴾

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعد من أجله كاتباً أو اديباً إلا اذا كان الأدب كله عبثاً في عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائقين يقول « ان في اسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجي فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذي لا نرجو منه خيراً. قال مهيار

فيارب قالد دمي مقاتي بما نظرت واعف عن قاتلي
هنيئالحبك ـ ذات الوشاح دم طل فيه بلا عاقل
وحبي ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة ـ كلام معقول لين الانحدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ العقل فيه اذا نثرته وتأملت ما تحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية مافي الأمر ان صاحبه اراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد اعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويغني عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه ذنب النظر الي الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في اللين وذهابا الى أقصى المدي في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولادم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول أنه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفي لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا النظر حادثا واقعاً . وأمثال هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين لأنهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله الرجوله والعقل

ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض . وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب فى الشعر ومذهب الآريين — أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون الاعرابا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره

حلى من المعدن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جلبوا
يشكرها الفرس فى مديحك للمـــعنى وترضي لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ وإكبارهم شأنه وذهاب غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى فى حلاوته وعذوبته كقوله

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقة فى خدودها لو أنها تسرى الى أكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع فى هذا فما ظنك بالمتأخرين والعابثين الذين افتنوا فى العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للانسان أنهم كانوا يتبارون ليروا أيهم أعظم تطليقاً للعقل واتيانا بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . أما الحلاوة فتجدها في مثل قول الشريف الرضي

انت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك فى قلبي وأحلاك

وقوله من القصيدة عينها

عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وليس يمنعك ان تتذوقها من البيت الأول ذكر المرارة فانها هنا أخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجدى وأنفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا ان يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لاغضاضة فى ذلك ما دمنا ندعو الى حق وقولة صدق

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترى من التنوع فى الاطراد والى احساس الشاعر

باللذاذة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا ( أنت النعيم ) وتأمل اطراد العاطفة فى مصراعيه وتوازن قوتها فى شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا اكثر ولا أقل ولو انه كان قال « انت النعيم لقلبي والجحيم له .. فما أمرك الخ » لاحسست التنافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول السكين شكرى يصف جميلا و يبالغ فى (حسنه)

كأنما صاغكم كيما يحبكمو  يافتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت ـ فانك تحس اذ تنتقل من الشطر الاول الى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتا وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية

وتدبر بيت الشريف الثاني وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر بالشوق حيث يدس العابثون والمقلبون أقوى الالفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة . ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب وأولها ولا اكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه التقبيل اشتهاء لاينبو مع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت ـ من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ إلا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد

واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضي التى يقول فى مطلعها

ياليلة السفح الاعدت ثانيـة  سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائي التى احتذاه فيها وترسم مواقع اقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزيء بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائي مجاراة له. يقول الشريف

قدرت منها بلا رقبى ولا حذر  على الذى نام عن ليلى ولم أنم

فيأخذه الطغرائى ويحرج صاحبيه ان كان لهما وجود

ياصاحبي أعينانى على كلفي  بمن تناوم عن ليلى ولم أنم

ويقول الشريف يصف ليلته معها

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا  على الكثيب فضول الريط واللمم

يشي بنا الطيب احيانا وآونة  يضيئنا البرق مجتازا على أضم

فيسطو عليه الطغرائى ويصوغهما فى اربعة ابيات مرذولة

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنا  وفرشنا الرمل وشته يد الديم

والليل يكتم سري والصبا كلف  بنشر ما كاد تطويه يد الظلم

يانفحة الريح باتت بين أرحلنا  بالجزع تسلك بين العذر واللمم

نهبت طيباً وأغريت الوشاة بنا  ياحبذا أنت لو لم تقتدي بهم

ويقول الشريف

واكتم الصبح عنها وهى غافلة  حتى تكلم عصفور على علم

فيضعه الطغرائى فى هذا البيت المنحوس

وغاب عنا غراب البين ليلتنا  فناب عنه عصيفير على علم

ويقول الشريف

يولع الطل بردينا وقد نسمت  رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائى هكذا

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة  باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى  يلفنا الشوق من فرع الى قدم

فيأبى الا أن يعف عفته ويجىء بهذا البيت المنثور السخيف

ورق لى قلبه القاسى ومكننى  مما أريد فلم آثم ولم ألم

ويقول الشريف فى غير هذه القصيدة

أنت النعيم لقلبي والعذاب له  فما أمرك فى قلبي وأحلاك

فلا يرى الطغرائى أن يتركه في قصيدته دون مسخ

طاب الهوى فى الجوى حتي أنست به  فهو المرارة يحلو طعمها بفمى

فيخاط ويحسب الشريف الى هذا قصد : ويقول الشريف

ولا استجد فؤادى فى الزمان هوى  الا ذكرت هوى أيامنا القدم

والذكري طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائى يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة

تريد أن أستجد الحب بعدهم  والحب وقف على أحبابنا القدم الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره . كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطغرائى لا يسيغها المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الي جلاء ولعل القارىء قد رأى مما أوردنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها،

***

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف اسلوبه بالنعومة أقرب الى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لانه متجاوز ذلك ذاهب الى أدني منه وليس أدنى من ذلك الا الانوثة وهى أحط وأضر ما يصيب الادب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يلتذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم إياها أن يشجعوه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف

قال المنفلوطي فى مقدمة عبراته :

« الاشقياء فى الدنيا كثير . وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن اسكب بين أيديهم هـذه العبرات علهم يجـدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالذق عطفاً على المساكين أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعاً كذلك ان كان يريد أن يذهب الى هذا المعنى لان كل أمرىء طالب محروم . ولـكن وظيفة المرء فى الحياة ليست ان يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لان الاصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل اليها بدونه . بل هى تنتفى اذا امتنع وبطل

وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الاقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن أيات هذه الفطنة ـ فطنة عميقة مستوليـة على النفس ـ انهـم قالوا ان فى الوجود قوتين متنازعتين أبدا قوة الشر التى تطغي بالليل وتجاجل فى الرعـد وتقـذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والاوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منـه وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة الي آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى بأهرمان وللثانية بأرمزد

ومثل هـذا واضح فى جميع الاديان وان تغيرت الاسماء وتبـدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لهـا .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هـذا وفى أوهام العامة التى تعزو الامراض الى فعل الشـياطين وفى خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا أثرا من الاعتقاد الاول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولـكن هذا

الذى يحسه الأطفال والعامة والذى فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم البسيطة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب ان ليس له من عمل فى الدنيا إلا البكاء على الاشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالة في جوف الثرى

وعسى قائل يقول : أن هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقلبها رذيلة أن صاحبها بالغ وغالا فى الامر لانه انما يغرق فى النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد فى التصوير ليكون أبلغ في التأثير ويتناهى فى الدعوى استدناء للغاية القصوى

هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لان الانتصاف منها لا يتأتي إلا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه فى ضوء الاستقراء الحديث

ما هى أخلاق المنفلوطى ؟ هى بالفاظه — أو إن جادل فيما ارتضى أن يوصف به من الالفاظ — انقباض عن الناس ووحشة — عفة حتى عن مد يد الى أبويه — كرم فى الخلق طالما كان سبباً في وصول الاذي اليه — حلم يظنه الظان عجزا وضعفاً — صمت طويل يحسبه الناظر عيا — ما رؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير برشد الحليم ( ١ ) مات له طفلان فى اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما — وليس أحقر فى نظره من المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه — لو ان الناس جميعاً أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته — ليس أبغض اليه من الكذب — يحب حتى العتاب المروا لتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا — يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض — ان كان فى اخلاقه مأخذ ففى هذا الخلق خلق

---

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الالمانى « من لا يفقد عقله أمام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده »

النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم ـ وطنى يتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه ـ الخ

ولاتنس أنه جرىء جرأة معدومة النظير في التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وانه محب مفرط الحب الانسانية — فيلانثروبست — وان أسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الأهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الأغلب والاعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق أيها القارى ؟ ؟ إما ان تكون مصدقها فننظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رأيا لك

أخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس متفرقة ! ولكن الامر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الاخلاق الرائعة النادرة في نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد في حالة غير عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبي غير سليم فليس من المدهش ان يكون البخل من أعضاء ما يسميه « فيرى» اسرة الامراض العصبية .وحب الانسانية ـ فيلانتروبى ـ نفسه مما يجرى هذا المجرى وقد كان ( هوارد ) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضاً وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ ـ واحدا أو اكثر ـ تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود فى حيز الادراك طوائف معينة من الاراء أو تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم ـ كما يقول المثل ـ لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا أنفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا ـ بغير مبرر معقول ـ عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة جيرانهم مثلا ، وكلا الفريقين من مرضي الاعصاب كالمعودين أو المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف

أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب الرأى »

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنما كتبها صاحبها لما نحن فى صدده وأيهما خير فيما يري لصاحبه ؟ ان نؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادره والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى أعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وان ما به ليس ايثارا وحباً للانسانية متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها في الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لاحلامهم واستهانة بعقولهم؟؟ لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القارىء لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد واحدة

« الاشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم »

سوداء ما أشدها وظالمة يأس ما احلكها وأحسس بالعجز الطاق والقصور التام. وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى تنشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى حياته أو في علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الامور صادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو وضعة قومية فى أبيه أو من يمنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسه التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع البكاء عليهم ـ أى تعليل لها من الاحوال التى تكتنفه هو أو سواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل ولا يخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب في المفتاح كأن يكون مكسورا أو ان تكون

أنبوبته مسدودة أو ان تكون أسنانه بالية وإما ان يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل او أن يكون الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالاً ثالثا وهو أن تنحرف بانبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو ان لا تبلغ باسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .

أو هبنى غضبت . فالامر فى هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين: ان يثير غضبي رجل مثلا بعمل مسيء فاذا كان إحساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعياً ولكن لنفرض ان الامر جاوز المعقول وان الغضب هاجه ماليس فيه اساءة وهو الفرض الآخر فنعود الي مثال المفتاح والقفل ونقول اما ان تكون الظواهر الخداعة او الانباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد الى الاساءة وتعمد الإيذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل ماثيره الايذاء لو كان واقعاً ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعاً الى الوسط والعيب عيب القفل — او يكون العمل فى ذاته غير مقصود به الا الخير كان يرتب لك خادمك اوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب او لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبلغا لا يتناسب مع الظروف — اى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الي علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت فى اليوم التالى وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبدالك تهورك فقد اعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك فى الصباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان «عملية» الموازنة أو الملاءمة مضطربة

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء او هو

يجهلها أو لا يعرفها معرفتها وفى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع أن يكتفه الرجل العادى وكان المرء قادرا من الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فأن الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية أو عيب فى هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه ابدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الاجهزة العصبية والاضطراب فى السلوك والاضطراب فى الادراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهي أشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى

## العبرات

### قصة اليتيم

ونعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن أمثاله الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط في الرقة والانوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات — حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المنتكس الا أن يغير ويبدل تبديلا كبير الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريباً بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقي كل صوت ولا قط كل نبرة وموجة أثيرية اذا به يسمع انينا أو حنينا أو صوتا خافتا أو توجعا أو زفيرا أو نهيقا أو شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه — من العمر ملقى يتوجع على سرير أو حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى — وهو مالا بد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على أبطاله — فيغسله ويلفه فى الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التى كأنما لها « زر » فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه

فتتحدر وتسيل وإن كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى اسبوع واحد!!

فبالله ما لهذا الحانوتى النذابة وللادب الذى هو حياة الامم وروحها وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها الى أجل المساعى؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع أن يتعظ بمصير أبطاله المخنثين — ان جاز الجمع بين النعتين — وبموتهم في شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله وان اخوف ما نخاف على هذه الامة أن تجد هذه الجراثيم ثرى صالحا فى نفوسها فى وقت هى أحوج ما تكون فيه الى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العاليه .

كتب جيته الشاعر الالمانى رواية « أحزان فرتر » وهو فى التاسعة عشرة من عمره أى قبل أن ينضج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربي ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا أن يزهي بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت اليه بأكورة أعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة — ظل الى ان مات لا يندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع أن يجمع كل نسخها من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟ ؟ لأن فرتر بطلها انتحر من أجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة أجل من ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان أو ان شئت فقل هى اهون من ان يكبر المرء أمر سعودها ونحوسها الي هذا الحد . وان مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للأمور وان لا يستطيع ان يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فأين تخنث العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولاندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولأنعهم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا

ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطىء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمطلها دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن افلح ومعذور ان أخفق

جيته — تلك الصخرة القائمة فى لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والاهوال — هو مثال الرجل الخليق بالحياة هو البطل الذي قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامه ويستقيد لعنانه والا ان يخرج عن طبيعته — ان صح هذا التعبير — وينسي جموحه مع المعانى وركضه فى حلبة متوعرة من الاداء فجاء اسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر فى سهل دمث من الارض،

ولعمرى ما أبعد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفقة وصحة الادراك و بين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتافيقات والمنكرات التى لا نعرف لها مثيلا فى كل عصور الأدب التى مرت بالامم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التى صدرها عبراته وموضوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات ابوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه واكرمه واحسن اليه إحسانه الى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشيرى صفاء وخدني مودة ووفاء ثم ذهب العم الي جوار ربه بعد ان اوصى زوجته ان تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم — اما كما كان هو له ابا ولكن الزوجة لم تلبث ان تنكرت للفتى فزعمت انها عزمت ان تزوج ابنتها وانها ترى ان فى بقائه بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد ان تتخذ للزوجين مسكناً ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وامرته ان يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الامر واسودت الدنيا فى عينيه لانه يحب الفتاة حباً لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها بل ولا هو نفسه إلا فى هذه الساعة . فانسل من البيت ليلا وآثر ان

يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطي ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة اشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى اخرى ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هي ومدرسته ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين ثم ان خادمته في بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتي ليودعها قبل موتها ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فالحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطي معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع أيها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس في المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التي تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطي الذي نسي أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس في القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والاحوال التي كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادي السليم عن مكافحته ولكي يقتنع القارىء بما نذهب اليه نجاوز الاجمال الى التفصيل

ارادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهي رغبة طبيعية تحسها كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطي

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي وداً واخاء او حباً وغراماً ولكني أعلم انه ان كان حباً فقد كان بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوماً انني أحبها لاني كنت أضن بها وهي ابنة عمي ورفيقة صباي أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الاليم في قلبها ، ولا قدرت في نفسي يوماً من الايام ان أصل اسباب حياتي باسباب حياتها — ولا حاولت في ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع في مثله المحبون ولا فكرت يوماً ان استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لاعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فأستعين بارادتها على ارادة

أبو بها »

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء ان لا يتكلم أو يقدر أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت عالمته لكان لها شأن آخر معه ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه بخبيئة نفسه

اذن فليس فى رغبة امرأة عمه ان تزوج ابنتها شيء يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه النشرد والانسلال تحت الدجى طلبها اليه ان يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصاً على الفتاة ان يريبها شيء من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعي . ولا شك ان فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقاً ان يجعله يسيغها . فلماذا انسل وآثر الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! اليس الواضح البين أنه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزاً ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس فى شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله بالغاية منه احساساً واضحاً ويدركه اتم ادراك والذي لا يفتأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذى لا يدرى أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته أم حب الرجل للمرأة . ولا يقدر فى نفسه أن يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول ان يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذري الذى لا وجود له فى هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة ـ واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس ـ والانقياد للمرأة كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات

البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والتحول والاصفرار والاطراق ونكت الارض والكلام الذى لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل اطراف الاصابع للاشباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات ...

لا . لايرضي هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لايطلعون على الحياة الا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال أشخاصها ولا غرابة فى ذلك فان من لاتؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائى لايسعه الا ان يسلم بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته ويتخذ اشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهى نتيجة يعلمها من له أقل الم بعلم النفس وبتأثير الايحاء لاسيما فى الضعفاء والشبان والنساء ومرضي الاعصاب

واذكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة أني أعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان يكون على رأس فرقة من « البوليس » السري يطارد المجرمين. ذلك لان هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان وأخصها الحب بتنبيهها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى في الفرد

*٥*

## ﴿ اسلوب المنفلوطى ﴾

أما اسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفي سواها فاسلوب رجل لايبالى من أى مدخل دخل على القارىء ما دام يقدر ان سيصل منه اليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لايزال

يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدها أن يلقيه ساذجاً ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه انه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه تكون مبتورة والجمل لا يجرى فيها النفس الى أخره دون توقف واعتراض ومع ان قصة اليتيم في تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقاً ليس من بينها واحد لا يكون الاسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب الى المبالغة في كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلباً للتأثير من طريق الافحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارىء فى أى كتاب يفتح من كتب الادب

ومعلوم ان الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فان الالفاظ كلها سواء من حيث هي الفاظ وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا من أجل جرسه وصداه والا لكان ينبغى ان لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد ان يكون وراءها شيء وان المرء يرتب المعاني اولا في نفسه ثم يحذو على ترتيبها الالفاظ وان كل زيادة فى اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة فى المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه وغيب عن عقله و بلغ من خلال الرأى ان راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفاً طبيعياً مطردا خالياً من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير. وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القاريء أن يسقطها بدون خسارة فى المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو أفقا رلغناها ـ كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب فان العالم أغنى فى باب الادب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بان يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الاداء ولكن هذا كلام

لا يفهمه المنفلوطي لان اللغة عنده ليست الازينة يعرضها وحلى يخيل بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس او رسم فكرة ومن اين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطي وكلها لا ضرورة اليها ولا داعي الا من الرغبة في تأكيد الغلو الذي يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجري هذا المجرى من الاغراض الأخرى .

١ ـ وقلت لابد أن يكون وراء هذا النظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوبا)

٢ ـ فيتهافت لها جسمه ( تهافت ) الخباء المقوض

٣ ـ ثم لم أزل أراه . . . . . أو منطويا على نفسه في فراشه يئن ( انين ) الوالهة الثكلى

٤ ـ وأتمنى لو استطعت أن اداخله ( مداخلة ) الصديق الصديقه

٥ ـ وقد بلغ الامر ( مبلغ ) الجد

٦ ـ وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك ( علاجا ) شديدا

٧ ـ فشعرت برأسه يلتهب ( التهابا )

٨ ـ واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه ( موجا ) ـ يصف نحوله .

٩ ـ فاستفاق قليلا ونظر الى ( نظرة ) عذبة

١٠ ـ فتنهد طويلا ونظر الى ( نظرة ) دامعة

١١ ـ أصبحت معنيا بأمرك ( عنايتك ) بنفسك

١٢ فانزلني من نفسه ( منزلة ) لم ينزلها أحد من قبلي

١٣ ـ ١٥ ـ فعنى بي ( عنايته ) بها وأرسلنا الى المدرسة في يوم واحد فانست بها ( انس ) الاخ باخته وأحبتها (حباً) شديداً

١٦ ـ ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها ( عقدا ) لا يحله الا ريب المنون

١٧ ـ فتشرق لها نفسانا ( اشراق ) الراح في كأسها

١٨ ـ ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد

١٩ ـ وهكذا فارقت المنزل ... ( فراق ) آدم جنته

٢٠ ـ فرحات ( رحلة ) طويلة

٢١ ـ هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بي الارض الفضاء ـ يعني غرفته ـ ( دورة ) سقطت على أثرها في مكاني

٢٢ ـ فحزنت عليها ( حزن ) الثاكل على ولدها

٢٣ ـ وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر ( زفرة ) خلت ان كبده قد ارفضت

٢٤ ـ وان الضربة التي اصابته قد سحقته ( سحقاً )

٢٥ ـ ٢٦ ـ أشعر برأسي يحترق ( احتراقا ) وبقلبي يذوب ( ذوبا )

٢٧ ـ ثم انتفض ( انتفاضة ) خرجت نفسه فيها الخ

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقاً ولا ندري الى اى رقم يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم أنفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق. ولنعرف هل الشأن واحد في كل كتابته ام هو اتفاق ومصادفة في هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة اكثر مما استعملها العرب جميعاً !

ولعل القارىء لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه ـ يعني المنزل ـ شريداً طريدا حائرا ملتاعا » وقوله « تركني فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئاً » وقوله وراء هذا المنظر الفارع الشاحب نفس قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء اولا يعلم أن هذا الاسراف في النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لان الكاتب أنما يرصها واحدا بعد واحد وفي مرجوه أن يوافق واحد منها محله وان يقع في مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وماذا يلقى ويبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لا يدري أي الرموز اللفظية أكفل بالعبارة التامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الالفاظ بلاحساب

مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للاصوات المألوفة . وهناك أمر آخر وهو ان الترادف فى اللغة من الاكاذيب الشائعة اذ ليس ثم فى الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحدا على وجه الضبط وما من مترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء فى المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعانى متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعنى على التحقيق وأى مدلولاتها المتفاوتة يقصد اليه ويريد منا فى فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله فى التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا الخفاء واشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوي غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حماقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لا يحتاج إلا الى أيسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء فى ذاته ولا معنى له فى نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الالفاظ بعضها الى بعض كاللون فى ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئاً الا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل الى اخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ فى العقل أو مجاز الي الفكر وقيام فى النفوس فلا كتابة حتي يكون معنى هو المزجي لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفى جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئه وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فأن أحدنا لا يعجزه أن يعمد الى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الالفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتركيب والاقتدار بهما والقدرة عليهما هى آية هذه السعة والطول والكثرة فلا تجعل بالك الى الالفاظ

اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ولكن اجعله الي طريقة تأليفه الكلام فان رأيته يدور منها في حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم أنه ضيق المضطرب محدود المجال ضئيل الحال وانق بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت

وكذلك المنفلوطي لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : « فعدت به حزيناً منكسرا وما على وجه الارض أحد أذل منى ولا أشقى » — « ومارئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً » أو هذا التأليف « فما هو ان مرت ايام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه — « وماهي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فانما نمثل ولا نستقصي ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المجال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر — والالفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت فى انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينهـا

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطي ذاهب مذهب التخنث فى كتابته وملفق مستحيل التلفيقات وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد فى صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة أي في الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درساً فيما يفيده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة أفق الفكر وانا لنعلم انه لن يفيدهم إلا الحسرة على ما أضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث فى هذه الأمة التى نكبت بهم على قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ولكنا ما قصدنا قط الى امالتهم عما هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من الشىء اذا قدحته وري وهدى من له قلب اذا اريته رأى

ونمهد لما نريد تبيينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما لا يدركون الشىء أو يصدمهم فنقول أن ههنا فى ناحية من الطريق شرطيا واقفاً يرقب الحركة ويلاحظ

العادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المنزين الى الشر الى اى هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذي ينبغي أن يعانيه الى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفته وتصوره وأنت ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا اوامره ونواهيه — هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب المضحك فى هيئته وفى تراخي همته وبطء حركته أو عدم التلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده الى الجدران وذهول نظرته أو حواره مع الباعة وتأتيه الي غايته وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته أو تواريه فى الدروب ووراء العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك ثم تصوره صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت الى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الاولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهة النظر الى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغايتك هى مانسميه اسلوب التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر الى الامور من جهات معينة — من ناحية الجد أو الهزل أو المألوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقارة وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنينا مقدار ما في سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب علي الصعوبات لان القصصي لا تظهر قدرته فى المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفى المواقف التى تتطلب أدق النظر وأشق التمييز واصح العبارة

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التى نظر بها فيه وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التى استعملها صادقة وهل السلوك الذى عزاه الى اشخاصه مما هو معهود في الآدميين كما نعرفهم وما مبلغ إسرافه او قصده وما مقدار خبطه وتخليطه او اصابته وسداده.

عسي قائل يقول. انك تضعه فى ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جري له

هو وأمثاله فى خاطر وردنا على هذا المحتج أن الادب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل ولا اعتداد فيه إلا بالصلاحية للحياة وهي هى ميزانها أبدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم علي صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص .فان ابيتم الا ان تعدوه كاتباً اديباً فلامسمح عن قذفه فى هذا الاتون الحامى لنعرف من أى معدن هو وانتم بعدخلقاء ان ترتضوا لصاحبكم ما نرتضى لأنفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش فى عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات . عصر تعتصر فيه العقول ويستنفدفى حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطاً زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب فى أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة ـ أو النظر المخلص الصحيح أن شئت ـ لايتفقان وأن الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون أديباً وان الاديب لا يكون متفقدا ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص وألفة يجب ان يقطعه الانسان ويعادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور قد سقط فى هوة الابد وجاء زمننا الشادى بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمي الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد اباداً ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر »

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى — وما اهول هذا الانحدار ـ فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها الكفاية وفوق الكفاية ولقد كان حسب سوانا فى غير هذا البلد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون الي ما تكلفنا اياه حداثة العهد بالادب الحى

يحسب المنفلوطي أن تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته ـ وأني

له ان يفهم هذا ـ أنه لايعجز أحدا أن يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهـل فى يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا ظواهر الاشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسيه واغتلاج الخوالج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

أمّا تفصيل المغلوطي فلا خير فيه بل الخير فى اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارىء أن هـذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدعي انه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب ـ وهو بطل القصة ـ في البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق النزلة الاولى بين شيوخ الرواية

« كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامى فتى (شاحب) الوجه منقبضاً جالساً الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب أو يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً) فكيف استطاع هذا التمييز بين الاستظهار والاعادة وكيف رأي شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟ ولـكن هناك ما هو أدهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفه مكتبي لبعض الشؤن فاشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصباحه وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما ألم به من تعب الدرس والآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع رأسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ماسحا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث أن عاد الى نفسه »

فأولا لماذا دس فى الجملة قوله فى أولها عدت « منذ أيام » وهي لا تفيد ولا يمكن أن تفيد شيئاً سوى أنه يريد أن يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدرى أنه أحس انه موشك ان يقول شيئاً مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاق وحتى لو كان

الوقت وقت الظهيرة المتقدة الملتمعة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لصابه لم يجد ما يخرجه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول ان الفتى رفع رأسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارىء هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل نخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انة ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض ( واسع ) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً فامرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عندى من أشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو تؤكأت عليه لا نهدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع ان يسمعه احد إلا فى مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتاج صاحبكم المنفلوطى ان يمر نظره على جسم الفتى

ولست احب ان انغص على القارىء كتابنا بكثرة ما اورد من هذه التلفيقات المنكرة ولكنى اسأله الصبر على هذه الجملة ايضاً — دعا المنفلوطى الطبيب فجس المريض وهمس في اذنه ان العليل مشرف على الخطر — ولا عجب ان يصير الى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه المنفلوطى — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطى الأجر واحضر الدواء

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين اسقيه الدواء مرة وابكى عليه اخرى حتى انبثق نور الفجر »

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعد فترات ( زمنية ) يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفلوطى امره ان يعطيه الدواء بعد كل ..... بكاء ! ؟

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات له طفلان فى اسبوع

واحد « فسكن لهذا الحادث ( سكونا ) لم تخالطه زفرة ولم تمازجه عبرة على فرط حبه لها وتهالكه وجدا عليهما » ؟ ؟ ؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواه .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطى عليه وبلا من الاسئلة وهو يعلم أنه فى سياق الموت ( فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رأني فقال أنت هنا ؟ قلت نعم ارجو أن تكون أحسن حالا من ذى قبل قال ارجو أن أكون كذلك قلت هل تأذن لى ياسيدى أن اسألك من أنت وما مقامك وحدك فى هذا المكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو انت من أهليه وهل تشكو داء ظاهرا ( ياللعمى ) اوهما باطنا وهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضي الصديق الى صديقه فقد أصبحت معنيا بأمرك ( عنايتك ) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفعه ماذا كان يخشى المسكين لوفعل وهو ميت لامحالة — بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى انتهي بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملاء احد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه فى ساعة الموت ! وما أخلق هذا الادب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

# شوقى فى الميزان

# ٢

عرضنا ( شوقى ) فى الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجاً عنيفاً وايقظه من غفلة كان فيها سادراً وماهو إلا ان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسامرته : «هبونى لست بالشاعر أليس لى فخر آخر ادل به ؟؟ »

نقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدر لاربعة أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى اوانه — اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في اسبوع أو أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد وتوالى الطلب له فى المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوي العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدي وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل . ومنهم اذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة بالدهش اميل منها الى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغبير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هدأة الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه . واما التذمر فقد استقبلنا معظمه

من حيث كنا ننتظر، ولا نتوقع غيره ونعني فريقي القراء ـ وبالحرى المتحدثين ـ الذين لم نوجه اليهم خطابنا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فراراً من تهمة الجهل والغرارة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللاعبة التي فتن بها . ومن أطرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة في نقد رثاء شوقي لثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التي أقام لها الازهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن باصنافه في تلك المناحة فظن ـ صان الله لشوقي اعجابه ـ اننا انما انكرنا سكوته عن القطن واردنا منه ان يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن ( طالعاً ) وقتئذ فيذكره في القصيدة ؟ ؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بانهم شركاء شوقي في ( العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ) فما رأينا أحرمن سخطهم ولا اكثر تصنعا لاسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها

***

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا أوهن قصائد شوقي واكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهي لا تقل في اعتقادنا واعتقاده عن أجود شعره صياغة ومعنى ولكن الحقيقة ـ كما قلنا في الجزء الاول ـ هي ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر اصحاب هذا القول باننا انما كنا نصوب الانتقاد الي شاعرية شوقي وذوقه وروح قصائده ومنهج ادبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأني ، واذا كان الطعن في الشاعرية والعاهة في الذوق والروح والاعوجاج في المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي سواسية

أما ثاني الاعتقادين فهو اننا اغاظنا العصا لشوقي وشددنا عليه النكير . وهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسساً على البرهان فنناقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما أحوج البرهان فى هذه الى الشدة وما اقل ما يغنى فيه اللين والهوادة

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجباً !! كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الامة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى اشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقاً ؟؟ فنحن لا نرى للرجل في انفسنا قدرا يتجافى به عن اخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه فى توطئة الجزء الاول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الاجزاء التالية . فمن كان يفقة ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الامة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ماشاء فانه لا يعرف كيف يغضب

وكأننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب ، وما ترخص له المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والاوان . وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص — لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكى فى النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها ابياتا لترويج غذاء مشهور من اغذيتها التى تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فاذا كان من امر ذلك الرجل المدعو

رديارد كبلنج الذى قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله ـ ويدعى المستر هيوز ـ وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتهان الابيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال « انه لمن أصعب الاشياء أن يتخيل الانسان أمرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لاتقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الادبية »

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عذر الشاعر وقال : « لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة ـ وعندي ان هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ » وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضاً للاهانة التى الحقتها بالشاعر (١)

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الادبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير فى غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفكهة

لمثل ذلك الابتذال يغضب اديب الغربيين ويقول محاميهم أنه أشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعاً وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الادبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا أنه « أسرى مروءة الدني وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لان هذا الذى انف كبلنج أن يصنع بشعره على غير علم منه قد صنعه

---

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠

شوقي بشعره مختارا وتعمد ان يكون اعلانا لساعة معروضة ؟ ألم ينظم ابياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها فى الصحف ؟ بلى فقد قال ادامه الله للدكاكين والمآتم والافراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة ... تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها ... حسنا وفكتها من التقييد
تهدى لحسن الخط كل مقصر ... وتمد فى الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها ... من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوق الطرس ان خطرت به ... من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيي مؤنسا بصريرها ... وتقول أيام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الامر إلا أنها ... مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الابيات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة ـ شعر لا يتأبه صاحبه أن ينزل به منزلة الاعلانات التجاريه ، وعبقرية دراجة أبانت أن اختلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى فى قوارع الطرقات « ياجواهر ياعنب » والذى يدلل على ريشة عربية بانها « حسنت الكتابة فى المشارق كلها » إنما يرشف من البحر الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة فى العالم كله » و « ولو لم يكن فى الامر إلا أنها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشة ويمدحونها بالجدة والسلاسة أن لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!

وبعد فأن المرء ليزدرى العقل الانسانى نفسه ان قيل أن هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى مزاياه وحملة أمانته فى الارض . فالادباء فى الامم هم عنوان حياتها الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوى

الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا. ويوحيه كمالا وفضلا، وهم اذا ذكرت الفصاحة فى الامم صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة، فقل لى رعاك الله أي هذه الطغمة أميراً كان أو مأموراً تفخر الامة الحيـة بأنه صورة ما في نفوسها من زينة وجمال ومظهر ما فى رؤسها من فكر وخيال وترجمان ما يجول بوجدانها وتعمر به صدورها من قـط فى الوجود وتراث مقسم بين أبنـاء آدم . وان المرء ليزهي بآدميته حين يلقي بنفسه فى غمار الآداب الغربية وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مهابها ومتجبتها وتجاوب اصدائها واصواتها ـ أبواب للـكتابة منوعة ومهايع متسعة وفنون مبتدعة ، ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحيرة بين هـذه الافكار المشرقة معروضة للناظر فى كل شية من شيتها محـوسة فى كل خطرة من خطراتها متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة. جادة ساخرة. ناقة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة بينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدي نواحى ذلك العالم الرحيب مالا تحسه من سواها فكأنها نفوس متفرقة لا نفس واحدة جاثمة

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الي الادب الذى يدعيه اولئـك الاميون العارفون بالـكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجباً . ترى هذا عاكفاً على رقمتية ولعلعه وذاك مديراً الى ربربه وسربه ، ومادحاً وهاجياً ومحسوباً على آل فلان ومتمسحاً بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية .أو كأنما هى الانقال الى القرار هاوية . فصدق إحدى اثنتين: اما أن أدبا تسمعه من هولاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الانسانية . أو أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور

وان من الجناية على مصر والشين لها ان يسمي هؤلاء النفر بعـد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لـكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه أو يستجاب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم؟؟ ووارحمتا « للـكلتور المصري »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الاذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدنية الحديثة أن أقلام ادبائها احدى الحواجز التى تصونها أن ترتد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها سلاح من اسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية — فأى عصمة لمصر فى اقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟ ؟ الا أن العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر واصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن أن يفهم الادب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم

***

وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة اسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر علية القوم يثنون عليه فيغترون بتشيعهم له ويروعهم اعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا حتى جاءت لجنة الاغانى فأماطت الستر عما وراء ذلك وهتكت للناس حقيقة أعجاب هؤلاء العلية اذا أعجبوا وقيمة استحسانهم إذا استحسنوا وانها ان هى الا محاباة ما سخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة

شمرت اللجنة عن ساعديها واغمضت امام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فاخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به للملأ كى يشاركها فى الابتهاج به فيالها مهارة !! ولكنها الوء حظ شوقي كانت تنقصها خفة اليد ! !

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث فى الجلسة مما أظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التئامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين ـ وهم اعضاؤها الاخصائيون ـ اختارت نشيدشوقي وأعلنت اسباب اختيارها له فى منشورها وهى أنها « انتهت فى مناقشتها الى أنه اكفاها واوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق لنشيد قومى » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطاً ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك فى الصحف ينقد النشيد ويقرر انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد القومية ثم انهم يذكرون أن فريقاً من اعضاء نادى الموسيقى من الذين كانوا فى لجنة الاغانى اذاعوا بعقب ذلك فى الصحف أن الاستاذ انما يتكلم برأيه ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين فى أبعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطنى المختار » للتلحين

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟

لم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هى أمامهم واقبلوا يسألونها وهى محتدمة تصفيقاً : ما هذا الذى تصفقين له ؟ ؟ نعم لم يعد يكفى فى هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيزها واجترأ الموسيقون على الافضاء بآرائهم فى تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول المنهزمين فقد أخذ يزعم أنه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم ... كأنما النشيد مشي بقدمين الي ديوان لجنة الاغانى ! ! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الامة عليه حكما قاضياً على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . اذن فماذا اشترطتم ؟ ؟ اترا كم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات؟ ؟ واين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟ ؟

كذلك تهافت حكم لجنة الاغانى بيدها وانكشف طاسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى بطاسم الاسماء الخلابة ووهم الالقاب الجذابة. وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغانى ولا لسواها

ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤوب اليه بعد أن تكون قد أبطلت وهم العامة في أمثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من أجلها نعمة هذا الوجود القصير

على انها مهمة ننفسها على هذه اللجنة فقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيراً فلو لم تقيضها الحوادث لاظهار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الالقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها :

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهر : قد كان يوم الجمعة الماضي ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القصري في الحفلة التى أقيمت تكريما له برآسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المكان ثم أقبل نائب الامير محمد بك جلبى باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشافة للكشاف الاعظم ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقي بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الامير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة وألقاها بين الاعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الامير ساعة ذهبية أثرية ثمينة وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدي بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى والقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الامير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتما من الماس ووضعه في أصبع الاستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغني شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية

أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر )

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارئ وليتصور اسم شوقي مجرداً من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . . .

وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها فى انصافها وفي الاخلاص للفن الذي تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التي تنهض اليه لولا انها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففى فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديميه كونكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك للسابق من الادباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتي اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية ألفها . افيدرى القارئ من هذا ارنست بيروشون ؟ ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسى يسأل عن شأنه فاذا المسؤل والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلوا من كل اشارة اليه أو الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صحفه هذه ترجمته « خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » ( ١ ) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا تاما وان كان قد طبع في الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص . . . ولم

---

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٣ ديسمبر ١٩٢٠

يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه الا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر »

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلاعجب . تلك لجانهم تعدل فى أحكامها هذا العدل وتحيي كل ملكة صالحة للحياة وهم لا يأتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لاتحسن غير المجاملة ولاتحسن ان تجامل الا بأن ترضي فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والاقفار ؟ ان فى ذلك لموعظة

***

وخلاصة القول اننا عرفنا رأى القراء في عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفيء الى شعره فقد أسخطناهم ولا نسأل الله أن يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم أنه يرى مايقنعه

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم »

ويمثل رأى الاخرين بيت لقينابه أديب مشهور فقال : ايه يافلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقي تولاه عباس فاظهره  واليوم يحمله في الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يحمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون

# رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سمسرة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟ ؟ أتنتقده ؟ ؟ قلت وماذا عساى أن أنتقد ان لم أنتقد المراء والزيف والشتات ؟؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت أظنها آية لاحد من العالمين وما حسبتها الازلة أستطلته فيها (مغالبة الشجون لخاطره) أو داهية خانه فيها امكانه الذى ما فتئ يخونه كما قال منها :

ماذا دهانى يوم بنت فعقني  فيك القريض وخانني امكانى

وما دهاه الا العجز والفهاهة والحرج . دهته أولا فأجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في أربعين يوما ثم زاد كثيرا من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على عادته من التانيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فما آيته فاندحض رسالته وفي معقله الحصين فانكشف وهنه وتفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأي معقل . ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الدجل بل أخوي من ذلك وأضعف ، وأضأل في الضؤولة واسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته فى صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان خاطره منه في وصب وشقاء . ولقد فات أصحابنا سمسرة شوقى ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما أجاد شاعرهم في رأيهم أو خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على أدائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة أخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب ، وكالاعجمى كلما أمعن فى فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع في ما أخذناه ونأخذه على شعر

شوقي وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التي رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق فى مقاتله والشواهد التي يبحث عنها لابراز مآخذه. وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الاول فيها

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقي واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور وأجمعها لاغلاطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر — وهذه العيوب هى التى صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخارد من الزنجى عن المدنية ومن صور الابسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر فى هذه القصيدة قدلاتجده في غيرها من القصائد الامزويا أودقيقاً عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر القصيدة بهذا المسبار أن من نقائص الشعر مالا يمنع أن يلمح له رواء معجب يستهوي البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى الغالب أجمل من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غالية

## ( ١ ) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبدداً من أبيات متفرقة لاتؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه في الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو مالا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن

الموسيقى بانفراده بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز واقداره في تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية الى حضيضها الادنى وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم انه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كاجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف واجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب صالحة لان تحل في أى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات ألفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه في أشرف المخلوقات وأحسنها تركيباً وتقويماً . وهى سنة تتمشى في أجناس الناس كما تتمشى في أنواع المخلوقات ومصداق ذلك مانشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة في السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعاً على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى في هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة ... حص اللحى متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة ... بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت أقدارا وملامح وبدوات وأطواراً حتى ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين في هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . ونقترب مما نحن بصدده

فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال في الادب أنفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا في روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لاعضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الابيات في القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكرة وجفاف السليقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة ، أو كانما هى ميدان قتال فيه الف عين والف ذراع والف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة

واذكان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فى قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه

وهذه كومة الرمل التى يسميها شوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أى وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك نأتى هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الاول ليقرأهما القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين مايصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لاروح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا انها كما نرجو لا

تضيع عبثاً — قال شوقي أصلحه الله :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني
٢ ياخادم الاسلام أجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين وروع الحرمان
٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان
٥ لم تألها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
٦ ياليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان.
٧ ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا ماغاب عن قس وعن سحبان
٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت أمن الوجود الفاني
٩ ابكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليه كرامة للجاني
١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان
١١ الله يشهد ان مونك بالحجا والجد والاقدام والعرفان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت البانى
١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى ولرب حي ميت الوجدان
١٥ اليأس جار في الحياة لغاية ومضالل يجرى بغير عنان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين غاليا المناصب لم تتح لجبان
١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا ايمان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة جعلت لها الاخلاق كالعنوان
١٩ واحب من طول الحياة بذلة قصيريك تقاصر الاقران
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان
٢١ فارفع لنفسك بعدموتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان
٢٢ للمرء في الدنيا وجم شؤنها ماشاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والاسرار والاعلان
٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ماالحمر من خجل ولامن ريبة لكنما يبكى بدمع قان
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران
٣٣ وكانه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكي وبين حنان
٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ماضم من عرف ومن احسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع الهتون غوان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم اذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون باى قاب ترتقى بعد المنابر أم باى لسان
٣٩ فلو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الاوطان
٤٠ أوكان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
٤١ أوصيغ من غرر الفضائل والعلى كفن لبست أحاسن الاكفان
٤٢ أوكان للذكر الكريم بقية لم تأت بعد رثيت في القرآن
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملئ معالم الجثمان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضلل قنط وساعات الرحيل دوان
٤٥ وتواظر العواد عنك أمالها دمع تعالج كتمه وتعاني
٤٦ تملى وتكتب والمشاغل جمة ويداك في القرطاس ترتجفان
٤٧ فهششت لى حتى كأنك عائدى وأنا الذى هد السقام كياني

٤٨ ورأيت كيف تموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائما مالليمنون بدكهن يدان
٥٠ وجعلت تسألني الرثاء فهاكه من ادمعي وسرائري وجناني
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري لنظمت فيك يتيمة الازمان
٥٢ وأنا الذي أرثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف في الورى بقصائدي وتجل فوق النيرات مكاني
٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكاني
٥٥ هون عليك فلا شمات بميت ان المنيـــة غاية الانسان
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها عزت على كسرى انو شروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت ام استراح الشاني

—

٥٨ ياصب مصر وياشهيد غرامها هـذا ثرى مصر فنم بأمان
٥٩ اخلع على مصر شبابك عاليا والبس شباب الحور والولدان
٦٠ فلعل مصراً من شبابك ترتدي مجـدا نتيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
٦٢ عامت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تـكون فى الشبان
٦٣ مصر الا سيفة ريفها وصعيدها قبر ابر عـلى عظامك حان
٦٤ أقسمت انك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملـكان

***

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل وسماها قصيدة لانها لم تأب أن تستقر في قرطاس واحد، ولقد كان أحرى بها ان تسمى أربعة وستين بيتا منظومة في كل شئ أو فى لا شيء . فاعبرها أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت

لها بل لعلها ربحت وعادت أحسن نسقا وأقرب نظما ـ قال شوقي أيضا :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى ولرب حي ميت الوجدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان
٦٤ أقسمت انك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والاسرار والاعلان
٩ ابكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليك كرامة للجاني
١٩ وأحب من طول الحياة بذلة قصر يريك تقاصر الاقران
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع الهتون غوان
٥٥ هون عليك فلا شمات بميت ان المنية غاية الانسان
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان
١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
٦٠ فاعل مصرا من شبابك ترتدى مجدا نتيه به على البلدان
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملئ معالم الجثمان
٤٤ يبغي ويطغى والطبيب مضلل قنط وساعات الرحيل دوان
٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائما ما للمنون بدكهن يدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
٤٦ تملى وتكتب والمشاغل جمة ويداك في القرطاس ترتجفان
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها دمع تعالج كتمه وتعاني
٤٧ فهششت لى حتى كانك عائدى وأنا الذى هد السقام كياني
٥٠ وجعات تسألنى الرثاء فهاكه من أدمعى وسرائرى وجناني
٤٨ ورأيت كيف يموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فعقنى فيك القريض وخانني امكاني
٥٢ وانا الذى ارثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

٥٣ قدكنت تهتف في الورى بقصائدى وتجل فوق النيرات مكانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيك يتيمة الازمان

***

٥٨ ياصب مصر وياشهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان
٦٣ مصر الا سيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان
٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
٤١ لوصيغ من غرر الفضائل والعلى كفن لبست أحاسن الاكفان
٤٠ أوكان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
٣٩ ولو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الاوطان
٤٢ أوكان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت في القرآن
٢ ياخادم الاسلام أجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
٦ ياليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان
٧ ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحبان
٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين وروع الحرمان
٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

***

٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت من الوجود الفانى
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت أم استراح الشانى
١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان
١١ الله يشهد ان موتك بالحجى والجد والاقدام والعرفان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة جعلت لها الاخلاق كالعنوان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت البانى
٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران

٦٢ علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا ايمان

***

٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكي وبين حنان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم اذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر أم بأى لسان
٥٧ اخلع على مصر شبابك عاليا والبس شباب الحور والولدان
٥ لم تالها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ومضلل يجرى بغير عنان
٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
٢٢ للمرء فى الدنيا وجم شؤنها ما شاء من ربح ومن خسران
٢٤ والناس غاد فى الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهاني
٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

***

فانظر أيها القارئ الى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟؟ على اننا قد تناولنا الابيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الاقصاء فى الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت

من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارئ نفسه: هل قرأ في الشعر أشد تفككا منها ؟؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرت من عقل ناضب يبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخع النفس فتأتي كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالاعضاء المنسقة كما رأينا في هذه القصيدة

## « ٢ » الاحالة

أما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة في هذه القصيدة خاصة ، فمن ذلك قوله

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لانها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا اذا ظن انها أعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى طائل اذ ماغناء قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران أو العمد مثلا نكست رؤسها لاجله ؟؟ ومنه قوله

ان كان للاخلاق ركن قائم ( في هذه الدنيا ) فانت البانى

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولأى

قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح أن يقال فى انسان معلوم أوصح أن يقال فى كل انسان : فى السياسى والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فما ذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟؟ أيفهم انه وحده هو البانى لكل ركن للاخلاق فى هذه الدنيا ؟؟ اذن فماذا يقال عن النبى ان قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟؟ وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول فى قائد الحرب وفى جوابة الآفاق وفى خطيب المحافل وفى التاجر السرى والوزير المحنك والمربى المرشد والمخترع الحاذق بل فى كل انسان بل فى الناس جميعا بل فى مخلوقات الله وكائناته طرا من حى ونابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء أرثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه ألوف الملايين منذ ألوف السنين . ولا جرم فان كونفوشيوس ان كان قد سن للناس شريعة فما كل الاخلاق فى الشرائع ، وهب الشرائع مصدر الاخلاق كافة فليس كونفوشيوس وحده صاحب شريعة فى قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ ( هذه الدنيا ) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل فيه انه موقظ كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقا اذ كم فى مصر من رجل أيقظه وما أيقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا ؟؟ فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الامم فى جميع العصور فالامر شر من اللغو وأقبح من السفه — هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية فماظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام فى هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟؟ اذن يكون بكم العجماوات خيرا

من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى  هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمانى لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذى يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل فى قلبك آمال وأمانى الا فى معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعى : ياهذا الذى يمشى هل أنت حى ؟؟ ولقد قال حكيم

تموت مع المرء حاجاته  وتبقى له حاجة ما بقى

فكل من يفرض فيه انه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدى الهمم ومنها :

فلو ان رسل الله قد جبنوا لما  ماتوا على دين ولا ايمان

الصواب فى اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة فى أصغر المطالب وأقرب الغايات كما يقال في اظهار فضل المال ان الانسان لا يقدر على أن يشترى ابرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شدة لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه . ولو قال شاعرنا ان أحقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بانها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا ابعادون الرسالة فلا يحتاجوا الى الشجاعة . اما ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لا بد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل اذا سمعت أيها القارئ رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشئ يستحق أن ينظم فى بيت شعر ؟؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقي ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع  وهى المضيق لمؤثر السلوان

والذى يقوله الناس ـ وشوقي منهم اذا شاء ـ ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى ينفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !! فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأى لايخطر الاعلى فكر كفكر شوقى المقلوب

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة:

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة في ان يصبر الانسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما أصدقه فاننا لانرى منحة هى أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى أنعم الله به عليه . ولله في خلقه شؤن

ويقول :

يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى في ذلك النعش ؟! ولا يقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لان السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو انه قال « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟؟ وما هذا الرثاء الذى لايتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟ ؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك . فاعلمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم في كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل مايعرفه بأنه كالسكر . فالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . وكذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرئ وامرئ ولا بين حالة وحالة فى

جميع هذه الاوصاف

ويقول عافاه الله

وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت  فتعود سيرتها من الدوران

أى والله ظاهر . لكن الشموس والاقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر

ويقول :

ياصب مصر ويا شهيد غرامها  هذا ثرى مصر فنم بأمان

ونقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن تتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن فى غيره

ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته  بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهرمين فى هذا البيت ونحن نعى على هذه المبالغة دائماً انها لا تدل على شئ فهب انه قال

فلو ان بالقطبين من عزماته  بعض المضاء تحرك القطبان

أو قال

فلو ان بالشطين من عزماته  بعض المضاء تحرك الشطان

الى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت فى رثاء مصطفى أو فى رثاء باستور أو فى رثاء ابن زريق أو مشهور كائناً من كان فماذا يختلف من المعنى ؟؟ ومتى كانت الاوصاف لا تتغير بتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟؟

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها  قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارئ — ولا تخطئ فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها — مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثي رجلا أحيا نهضة في بلاده فيجعلها قبراً ، ولأي ضرورة وليدل على ماذا ؟؟ لاشئ

وقد اجتزأنا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل مافي القصيدة من شواهد الإحالة واعوجاج الطبع بل لأنها ذات طعم وان كان رديئاً ممجوجاً وما سواها تافه لاطعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما أكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان

## (٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت

والخلق حولك خاشعون كعهدهم اذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الانباري فوق تشويهه وذلك حين يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة

كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وانما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة . وقوله

أو كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الأسماع والأجفان

مأخوذ من بيت ابن النبيه في قصيدته التي لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت فى الترب ولو أنصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه « عوالم » الافراح فى اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا أرفع من القائلات « أحطك فى عينى ياسيدى واتكحل عليك » وانه ليقول كما قلن

ولو ان لى علم ما فى غد خبأتك فى مقلتى من حذر

وقوله :

أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت فى القرآن

منظور فيه الى بيت المعرى

ولو تقدم في عصر مضي نزلت في وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والعلا كفن لبست احاسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد

وليس نسيم المسك ريا حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما أضاف شوقى الى هذه المعانى سوى أنه جعل الاكفان تصاغ وانه تحذلق فقال

فلو ان اوطاناً تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الأوطان

يريد جسداً . كأنه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسداً لم يدفن الفقيد النابه فيها!!

وربما سرق شوقى ما لا يستحق أن يسرق فهذه شطرته

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى

أليست هى شطرة الشريف في احدى همزياته

لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هى من قول الشريف ايضاً « ان المنية غاية الابعاد » وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها فى رثاء فريد اذ قال

من دنى أو نأى فان المنايا غاية القرب أو قصارى البعاد

فأتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته فى فصل على حدة

( ٤ ) الولع بالاعراض دون الجواهر

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالاعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذي اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن التفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزانة الرجال . انظر أيها القارئ الى هذا البيت

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقي فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة ؟؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة — وهنا يبدو للنظر قصر المسافة التى يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟؟ ابهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الدى ينظم في الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا في نقدنا لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق

الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحاً يعظه في موقف جد — وأي موقف جد أجد من رثاء النابغين ؟ ! — فيناديه يا أخي صن وقتك لان قلبك يذبض كما تذبض الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في عقله ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعراً يطرب له ويكبر قائله ، وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بمحاقه أن يضحك منه ويلهو به

وكهذا البيت أخواه هذان :

لفوك في علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكي بدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لهما قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله . فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثي بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كي يكرن لونها دمعاً ودمعها دماً منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الأحمر :

كأن ما احمر منه حول غرته ... دم البراءة زكي شيب عثمانا
كأن ما ابيض في أثناء حمرته ... نور الشهيد الذي قدمات ظمآنا
كأنه شفق تسمو العيون له ... قد قلد الأفق ياقوتاً ومرجانا
كأنه من دم العشاق مختضب ... يثير حيث بدا وجداً وأشجانا
كأنه من جمال رائع وهدى ... خدود يوسف لما عف ولهانا
كأنه وردة حمراء زاهية ... في الخلد قد فتحت في كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضاباً لشيبة أو دم عشاق . فياللطافة الشعرية ! ! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدوداً من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالا أبيض فى أثناء حمرة والهلال الاحمر على عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو أنه تنبه اليه — ومع هذا فانى لا قسم أن صاحبنا رص هذه ( الكأنات ) في أبياته الستة ويخيل اليه أنه لو تقدم به الزمن عهد عمر بن الخطاب لقال أشعركم من يقول كأن وكأن لامن يقول من ومن ...

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفي الخجل والريبة عن احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس الظنون وهى بريئة عفة !! اذ ما الذي يخطر على باله الخجل والريبة في هذا المقام وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم  فى هذه الدنيا فأنت البانى

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهى بصاحبها ! ! وليت شعر شوقى اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟ أكان لا يرى لف النعش بها أي معنى لأنها لا تبكي بدمع أحمر ؟؟

تلك آية شوقى ومعجزته : آية السيماء . معجزة الشعوذة . كومة الرمل كما قلنا فى أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع فجاءت معرضاً مختاراً من الأغلاط ، وسملا مرقعاً من النشوز والاختباط . وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقاً آخر فيأتى بالمستوي من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم فى أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى  في الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباها  منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدنى والحرم المكي وكل قارئ للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان فى مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع في موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكأنه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكي وبين حنان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التى يقول منها في مصرع الحسين

وخر الموت لا كف تقلبه الا بوطئ من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضى وهى تنهبه نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد أقام ثلاثاً غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى أثخن بالجراح وانه — لاحيا الله قاتليه — مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله الى يزيد فى خبر فاجع لاحاجة الى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب ؟؟ ولا تقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال الى النعوش الا من كان نعشاً مختالا كهذا الذي لا يميز بين تشييع قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فأن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذي يحتفل به الشيعة كل سنة تذكاراً لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب فما رأيناهم يحملون نعشاً وانما يقتادون جواداً مسرجاً ملجماً لأنهم أزكن من شوقي وأدرى بما ينبغى أن يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتفلون بمصرعه في ميدان حرب لا بمدفنه فى الثرى

كان يسعه أن لا يقول ذلك كما كان يسعه أن يسكت ولكنه ألم أن

يستقصى عاهات الشعر مايتداركه منها ، اذا شاء ، ومالا يتداركه . وأن يجتهد في ذلك كا نه يكافأ على مجهوده وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا ان يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون

***

ولا ندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبي ومضارعة المعري قبل ان نكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البديهيات واشباه البديهيات التي يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لاطاقة له به

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من أصعب الشعر مراما وأبعده مرتقى لايساس قيادها لغير طائفة من الناس توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجري بها ألسنتهم آيات تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات مالا تزيده الاسفار الضافية الاشرحا وامتدادا وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة : قدم الحقيقة كا ثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وجدة النظر الثاقب والنفس الحية التى تطبع كل مرئي بطابعها

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبي اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعي والغافل من يعي لو شاء ولكنه لا ينتبه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ماتبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعني

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتي لكأن قارئها قد كان يجهلها أوقد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتي لكالطول (١) المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل مايقال في محبوحة العمر المرتهنة بالأجل

وطورا تصل طرفي الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحتري

متي أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الاخمول نبيه

وطورا تصدع برأي يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤوبة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

أوكقول أبي فراس

ما كل مافوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فكل شئ كافي

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا في كل نسل ونتاج

و يقرب الشاعر الحكيم المعني العويص والفكر البعيدة فيوضحها وضوح

---

(١) الطول حبل يطول للدابة لترعى فيه والثني الطرف

المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ

لا يصلح الناس فوضي لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثا وتنقيبا فى علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما في شؤن الامم وراقبت الدول على سنن شتي من الانظمة والدساتير فما خوجت كلها بزبدة أوجز ولا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى اليها هذا البدوى الناشئ فى عصور الجهالة وانك لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشوشة معتملة . أشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قاونا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير ، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدي والهجير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطئ النهر من يروح ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة فى البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم — ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها

لى دولة الشعر دون العصر وائلة مفاخري حكمى فيها وأمثالى !!

فهل يدري القارئ من صاحب الحكم والامثال الفخور ؟؟ انه هو شوقي ، ثم هل يدري ماحكمه وأمثاله التي استتبت له بها دولة الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بخذال

والعلم في فضله أو في مفاخره ركن الممالك صدر الدولة الحالى
يقل للعلم عند العارفين به ماتقدر النفس من حب واجلال

—

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارئ بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم احفظ الدرس . حلى النساء الذهب وحلى الرجال الأدب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا فيها من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر — فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحسنون هم اللبا ب وسائر الناس النفاية

—

ان القضاء اذا رمى دك القواعد من ثبير

——

والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرؤس مدبرا

——

الجد غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المفراح

——

سر فى الهواء ولذ بناصية السهى الموت لا يخفى عليه سبيل

——

فلم أر غير حكم الله حكماً ولم أر دون باب الله بابا
وان البر أبقى فى حياة وأبقى بعد صاحبه ثوابا

ومن يعدل بحب الله شيئاً  كحب المال ضل هوى وخابا

---

وما الرزق مجتنب حرفة  اذ الحظ لم يهجر المحترف

---

ما الدين الا تراث الناس قبلكم  كل امرئ لأبيه تابع تال

---

ومن العقول جداول وجلامد  ومن النفوس حرائر واماء

---

أرم النصيحة غير هائب وقعها  ليس الشجاع الرأى مثل جبانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمام وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة في أثر واحدة فيفهمه متئداً أنه : « ان آل لك حد الراكب متل الماشى أول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى متل الفقير أول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة « شيلة » حتى رأى شوقي أن يسمعنا نظماً « ان آل لك حد الشجاع متل الجبان أول له بتفشر » فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية ! !

وهل علم أحد أن المسافر اذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقي :

وكل مسافر سيؤب يوماً  اذا رزق السلامة والايابا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغرباً جهلهم سائلا اياهم :

أليس الحق أن العيش فان  وان الحى غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟ ؟

أم حكم أحد الاحلام الا حين علموا منه أن :

الحق أبلج كالصباح لناظر  لو أن قوماً حكموا الأحلاما

***

ومن أمثلة حكمته المغشوشة المعتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به  لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة فى شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها — أى انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى أتلفها ولم تتفتت هى حتى تفتتت . مهابة واجلالا !! ... وانه لما أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الأسد لا يؤكل الا عضواً عضوا ...

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء ، المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والايماء . تصفيق متواصل ... لا بل ضحك تتجاوب به الاصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء

فياهذا . أن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنها في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة أجساد كثيرة . وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من أكلها الى أدناها . ولو جاز أن يعظم أحد بأن يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك أليق بابطال الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول في أبي شجاع

من لاتشابه الأحياء فى شيم  أمسى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم محضأ الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى انه لامعنى لأن يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل الا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالفأر أيضاً لا يؤكل الا وهو اشلاء والدجاجة لاتؤكل الا وهى اشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميع الآكلين .

وصاحبنا يرثي شاعراً فيخلط هذا الخلط فعافاه الله أى نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟ ؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة ان كنت فهم ... ان عزرائيل في حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل ... من توقاه اتقى نصف العلل
اتخذ سكناك في طلق الجواء ... بين شمس ونبات وهواء
خيمة فى البيد خير من قصور ... تبخل الشمس عليها بالمرور

ونقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان أردت النزول اطلب من الكساري توقيف القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

***

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتاً يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعاً ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد فتبقى كما هى . ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المتنبي الذى يقتفى شوقي أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والاقدام قتال

---

ألف هذا الهواء أوقع في الأنـ ... ـفس ان الحمام مر المذاق

---

من أطاق التماس شئ غلابا ... واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

---

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل تروق دفيناجودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن أن تقع لشوقي من ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته في نقل هذه الأحاديث منظومة فاذاهى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة ) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحة فكلاهما صحيح ولكن ليست الصحة الواقعية هى ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وانما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقالب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هى بغيتنا من نجوى الالهام وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لان هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتدبئنا وحدها بأن في البيت حقيقة أقرب الينا وحجة ألصق بنا وثمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « ألف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير ؟؟ أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التى ليس كيانها الا عادة تألفها زمناً ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال في بقية الأبيات

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر مايتعاطاه النظامون لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساساً ولن يقاربوها ولا اختلاساً . لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لووقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فحالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحبنون الظن بحكمة النظامين ان أرقى ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة في شؤون المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية فأما الأولى فبنت

المران والمكابدة تقرأ آلافا من امثالها في كتب اللياقة ونصائح « اياك وحذار وعليك » وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق في شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الاولى لون من ألوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لاشك فى غلبة الصناعة عليه كالحريرى على ماأذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشباك مختلفات

ولكنها فاتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقي بيت سوقي فظن انه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق انه له أوكأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو

وانما الامم الاخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرره فقال

وانما الأمم الاخلاق مابقيت فان تولت مضوا فى أثرها قدما

ثم كرره أيضا فى قوله

وليس يعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك عل الاخلاق كان بناؤه من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى اليه من يخبرك بان الاخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ماهو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الاولية

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل

هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشي ولها ذنب
لاتغضب يوماً ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى أن يقول

الناقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثير في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها انها سخيفة ظريفة . وهاهنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والامثال

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت فى الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها أصفاراً لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لا تؤدى معنى محدوداً في الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحياناً من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقي ؟ ؟ ان من الامم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ عاص بسير هذه الامم . وان منها لما تحمد سجاياه ثم لا تلفيه من القوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقي ما غناء بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل

ولقد أضحكنا مرة أحد الثرثرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وان في ذيوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له ياصاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي

لا تقل أصلى وفصلى أبدا انما أصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهـذا الشعر قيمة فهنيئاً لنا :: اننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئاً للانسانية فان الشمس لا تطلع الا على الحـكماء من أبنائها

.....

# رثاء الاميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الاستار ، و بقبر النبى المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبي ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ماان دفنوا بالأمس الانيرة . . . .

بهذا القسم ، أوعلى الاصح ، بهذه الاقسام استهل شوقي رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهى منثور قوله :

حلفت بالمسترة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في الـ ـحظائر المنورة
مراقد السلالة الط يبة المطهرة
ماأنزلوا الى الثرى بالأمس الانيرة

ولولا ان الامر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبي وامام ، انه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء ، ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لايكون له فكاهة وقد أرانا شوقي في مراثيه أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح ـ أفرأيت أحداً قط يقسم لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة غير شوقى ؟؟ واذا أطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن و نتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه و نتخذ له اسما فى أصول البلاغة مصطلحاً عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسما آخر مقبولا

لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعاً وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم أنها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . والا فلوكان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرة
وكل دمع كذب ولوعة مزورة

ألا ان الامر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب واتهم نفسه في ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ونرجو ان لا يبارى فيه . . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للاشياء بغير أسمائها . فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه

***

عجيب والله أمر هذا الرجل ! ! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ولا توقراً أقرب الى المجانة من هذائه في رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات الاميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟ ؟ وهبها لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايمان أو البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا ونسأله : ماباله يفترض ان الناس تبكي على الاميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضرورى هذا ليقول بعده ان الدموع الكاذبة لاتغنى عنها وأنه

لا ينفع الميت سوى صالحـــة مدخرة

أيقول ذلك لان الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟ ؟ فاذا كان التباكي كالبكاء فى هذا المعني فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

***

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقى عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفاً لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغوعن محضهما لمن عساه ان يكون عل رأس المستحسنين لهما . فالبيت الاول وهو

فاطم من يولد يمت المهد جسر المقبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا الى غيرها فانما الدنيا لهم معـبر

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهو أوضح وأوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنية واعلم انما الشيب للمنية جسر

فالذي صنعه شوقى هو أنه سرقه وشوهه كعادته لانه جعل المرء يخرج من المهد الى المقبرة ومانظن الناس يموتون كلهم أطفالا ! ! والصحيح ان المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته

والبيت الثاني أوهو بيت القصيد فى رأيهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا أن نمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هـذا

البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد أن يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو أنه قال

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا أدركه الموت حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا ممن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوساً ...

ومن ترهات شوقى التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس في غد ميتة فنشرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين وهى تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى أن يقول : ان كل نفس تموت منشرة غداً — فخانه الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما جاء بطائل

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحمصاء ، والشعر اذا تساوي فيه النقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء

# ماهذا يا أباعمرو ؟؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا وكثيرا مايخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم. وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجله اذ يدعى الدعاوي العريضة على الأمة وعلى من لايستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينفق الحافه عند من ليس يكرثهم ان يخدعوا به . بيد ان الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الرأى وشيك ان يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه مالوعلم انه مضيعه لفداه بكل مافى دماغه من هوس ومافي لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وان قدميه أساس مقاداً من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة

أصدرنا الجزء الاول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعى لانه لايبالى اذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة ونقاب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا الاجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجهاً من أوجه النقد التي أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان الفذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين . ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟؟

وليته اعتدل أوترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه أذن لنفسه بغاية الافراط

ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هـذا ياأبا درويش أو ياأباالسامى كما تكنى نفسك أوياأباعمرو كما تقول للجنـة الأغانى فى خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لايغتصب بالسيف كماصنعت وفي رائعة النهار

قلنا في نقد نشيد شوقى ان النشيد القومى يجب « أن لا يكون وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب »

فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشـيده فحور منه ما اسـتطاع بضمير المتـكلم فقـال :

الى العلا فى كل جيل وزمن  فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت فى الطبعة الاولى :

الى العلا في كل عصر وزمن  فلن يموت مجد مصر لا ولن

ولما ان طوي هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئاً وصاح يؤنب شوقى لقوله :

على الاخلاق خطو الملك وابنوا  الخ الخ

ويسأله : « وممن هـذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسـه أم من شوقى للشعب ؟؟ ص ٧٩ » كما سألناه من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة !! » وكما أخذنا عليه « انه استوطأ مطية الفلسفة والمواعظ »

وأنـكرنا من نشيد شوقى انه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيداً لا نتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا وأن لا نبرح نشرع في التمهيد ونأخذ في الاسـتعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الاركان »

فجاء أبو عمـر البيغاء فقال : « واذا قيل اليوم لبني مصر هيا مهدوا الملك ومكانـكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله والى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟؟ » ص ٧٨

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس « ألم تك تاج او لـكم مليا ؟؟ » بأن

الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها »

فعلمت الببغاء أيضاً « ان زعم شوقي ان هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها ؟؟ » ص ٧٩

فلله ما أعلم الببغاوات بانتاريخ اذا لقنته !!

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وانه صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » تهيا و « شيئاً » شيا

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول . « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه الاالقليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الاساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢

فذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الاساتذة الذين لا يدركون مايدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تاحين تطاول عهدهم نزاً و « نخراً » الخ الخ

لان التنوين لا بد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت » قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا الى كلة « نخراً » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟؟ » ثم قالنا : » ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقدول كننا نعذر المنشد »

فروى هو كذلك عن الادباء والملحنين انهم « تنادروا بقوله نخراً وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انها ممالا لايذوقه أحد الشعراء من طعم كلامه » ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه »

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفناهذه المقطوعة

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الامانا

ونحن بنو السنا العالى نمانا أوائل علموا الامم الرقيا

لان الناظم ساقها مساقاً ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس »

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجباً : « كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣

فاسأله بالله ثم اسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادي النيل عدن الخ الخ

قال « ان البيت الثاني منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر »

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده : « كلام مقطوع عما قبله » وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟؟ » ص ٨٠

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت

جعانا مصر ملة ذى الجلال وأنفنا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ »

فوضع أصابعه في أذنيه ـ أو لم يضعهما ـ وأصر وولى واستكبر استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقاً قلنا له فان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيلين وكل هذه الاديان ملة ذي الجلال » ص ٨٤

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان أحداً تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة انها طبعت فى نوفمبر

سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه انه ضمنها في صفحة ٦٧ كتاباً للاستاذ منصور افندى عوض مؤرخاً في ١١ ديسمبر ....

فهذا الخلق البغيض ونظائر من جرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقززاً وعزوفاً من أدب الجيل الماضى وأدبائه ومن صناعة ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرم يرعى ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عندحده — أرجحهم منها سهماً أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وأرفعهم فيها اسما أطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعاً نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وماق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولاحقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وانما البأس كل البأس عليه من المروءة والحياء

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم فى جلسة لجنة الاغانى فقيدناها لهم وأبينا لأنفسنا أن ندخلها في كلامنا مع انها أهون وجوه النقد التى أخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل ان نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لايستحى ان يسم نفسه على غلاف رسالته « بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها » يعمد الى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله جملة ولا يفلت منه كبيرة ولاصغيرة حتي تسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام (١) ثم لايرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا في مصر كان هو يكتب رسالته فى أقاصي الصين

---

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكثرهم أن يقروا أصنام الطبقة التى هم دونها ليكونوا بذلك أصناماً للطبقة التى هى دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزغت شياطينه وانفرعت رذائله فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

أوأطراف السويد . ولا ندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن انه فاتنا أبلغ في الفند والسخف فنعى على نشيد شوقى خلوه من لفظتي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة تتغني بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه

ايه ياخفافيش الادب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لاهوادة بعداليوم . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساوئ تعملون للادب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسبها الادب والحقيقة ؟

عباس محمود العقاد

# صنم الاعيب

## — ٢ —

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين : أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون الأأن يعدوا شكري من دعاة الجديد والأأن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولانحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لالسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رؤسا وكأنما حملوا معدة أخرى لاعقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا أن لانشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا في محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه ! ! فياويحنا لقد أسخطنا والله هذه المعدات الضاغبة وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقدنا شكري الذى « وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته » ! ! كما يقولون . ولكن لاضير علينا من غضبهم ولاداعى لهذا الغضب فانا لانكر ان شكرى « ضحى بشخصيته » !

« مكسين هذا الصنم !! لايعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فيجئ دفاعهم أقتل له من نقدنا . وينقمون منا انا جعلناه صنم الاعيب

وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقدكنا وكان شكرى . نخلص له النصح ونمحضه الرأى والسداد ونشجعه ونغتبط بمارآه من تحلله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة في التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم أهملناه على شيء من اليأس منه ثم تخشناله وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا رأسه حتى أخفاه ؟

ولقدكنا فى كل ما كتبناه عنه فى أول عهده بقرض الشعر لانغفل الى جانب التشجيع أن ننبهه الى عيوبه فقلنا عنه لماصدر الجزء الثانى من ديوانه « انه بطأ متأخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد كلامه بتهذيب أوتنقيح ولا يبالى أى ثوب ألبس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المثال العتيق » أي أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك في ١٩١٣ فهل يرى أحد أن رأي اليوم لا يتفق مع رأى الأمس ان صح ان هناك رأيين ؟ كلا لقد أديناالواجب له وللأدب قديما ولكنا اليوم نؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكرى بالجنون وأنت مثله والجنون في شعرك كثير » وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه أبدا الى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالته . على ان كوني مجنوناً لا يشفع لشكرى ولا لسواه في شيء جل أودق وما اتهمنا شكرى ولا تقولنا عليه شيئاً ولكنه هو الذي يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل في كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ »

« انى أسىء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت فى الضياء ظلاماً ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الاوهام التي هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه

فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس في أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس في اذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط في الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت أعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا يذهب المرء الذكر والأمانى ) اهـ

فهل رأيت أيها القارئ أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ في شيء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهداً على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها في ( حركات وجهها وجسمها ) وليس هذا من المجاز في شيء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا في اعترافاته ص ١٠

« ويسمع المحب أنغاما وألحانا ( غريبة ) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى أشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب الهندسة ويرى أزهاراً خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات » فهو يسمع ويرى ما يعلم ان لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله فى وصف جنونه « ولا أعني جنون من لا يحس جنونه بل أعني جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه »

وشكري قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال فى ص ٢١ من الاعترافات : لقد كنت في صغري كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت ألتمس العجائز من النساء

أسمع قصصهن الخرافية ( حتى صارت ) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى ( وحتي صارت ) عالما كبيراً ماؤه السحر والعفاريت وحتي صارت العفاريت حولى تحل حيث أكون وأذكر انى رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلنا وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف »

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده كما كان فى فى حداثته . انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفى بعض الاحايين أخاف خوفا شديداً أن يظهر لى ابليس . . فأتلفت كي أثق انه لم يظهر بعد وفى بعض الأحايين أعتقد وجود العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صغرى لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ مثل عواء ( المجانين ) أو عواء الارواح الحائرة المعذبة ( التى تتخذ الليل جلباباً ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام لم اشك في أنها عفاريت من الجن وأصابتنى رعدة شديدة )

تأمل تدقيقه فى وصف هذه الارواح الحائرة التى يذكرها وكيف أنه لايجد تمثيلا لمواء القطط — لاعوائها — الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت في سمعه قال فى ص ٣٦

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها »

وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال في ص ٣٤ « أذكر انى رأيت مرة حريقاً هائلا فى جنح من الليل فهيج في قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد ألسنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوباً وكنت أحس لفح تلك النار في خيالى وذهنى .... هذه هى المناظر التى ( ألتذها ) ومن الغريب انى يخيل لى ان هذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على يفهم معانى الحياة ومعرفة سرها »

ثم تصور شكري واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢

« مارأيت اثنين يتساران الاظننت انهما يذكراني بسوء . . أوأحدا ينظر الى الاحسبته يحدث نفسه عني بسوء وانى لأسيء ظنى الآن بمن سيقرأ هذاالكتاب ومارأيت أحدا ينظر في ثيابي الاحسبته رأى فيها شيأ خفي عنى وما رأيت أحدا ينظر فى وجهى الاحسبته رأى فيه شيأ قذرا وما رأيت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا أوحقدا ومارأيت أحدا باسما الاحسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم أعرف سببه الاخجلت خجلا شديدا وحسبتنى غرضا لذلك الضحك ( ومن أجل ذلك صرت أعبس في وجه كل من يبسم في وجهى من الناس الامن عرفت سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به )

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريت كل مايملأ ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام . قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى الحلم البارحة انى اتهمت ( كذبا ) باتيان جريمة ولم يكن عندى مأدفع به التهمة فصرت أصيح امام القاضى وأقول أنابريء والقاضى يهز رأسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم رأيت بعد ذلك انى أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع . . . انى لاذكر انى اتهمت ( زورا وبهتانا ) في أيام صغرى بسرقة علبة من الحلوى ولاأزال أذكرمانالني من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم ( كذا ) باطلة . . على انه من ( جنون ) اليأس والفزع والجبن توقع مالم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع »

ولا ينبغى أن تفوت القارئ ملاحظة تنبيهه دائما الى ان هذه التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه أن يصدق القارئ مايرويه معنى ولا شك

وقال في ص ٨٥ « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس منقسمون

بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهـذا نظر فاسـد فان في نفس القـديس جرثومة الاجرام . . أي الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك في نفسه من حشرات الشر . . . لقد مرت بي ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التي تدفع المرء الى الشر فان الجريمة مثـل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يلمح له سراب الشر ( بضيائه ) فيريد أن يروي ظمأه وينقع غلته . . انا اليوم برىء ولـكن مايدريني ربما كنت في غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التي في نفسي . . وكنت أشفق على المجرمين واملأ لهم قلبي رحمة فانه لايحزنني في الحياة مثـل رؤية آثار التعاسة التي يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رأيت في الحلم مرة أني أتيت جريمة القتـل ثم وقفت أمام جثة المقتول وقد أحسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمي وكنت أحس جريه كأنه دبيب الحشرات وقد جمد الدم في عروقي واسودت الدنيا في عيني وكلما أردت أن أتنفس أحسست شيأ يسـد مجري النفس وكنت أحس صوتاً كأنه صوت أعصابي تتقطع فيحكي صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيـل لي كأن يداً من جليد قد وضعت على ظهري هذه هي الاحلام التي تمكن الأديب أن يعـدم شخصه في أشخاص غيره وان يلج الى أرواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التعيس . »

وقال في ص ٦٢ « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الاحب الاحياء أنفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة أن أنتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكينا وأدنيتها من صـدري ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان أضرب نفسي الضربة القاضية فلم تهن على نفسي فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار الى ليلة أخرى حتى أفـكر في طرق الانتحار وأختار منها واحدة »

وقد فـكر في الانتحار مرة أخرى لسبب هذا خبره قال في ص ٩٦

« اني لاأزال أذكر ذلك اليوم النحس الذي لطمني فيه شقي لم يكن يدري

مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن وأخاه الحزم همسا في أذني قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو أقوى منك فلاتصيبه الا ببعض مايصيبك فخيرلك أن تتحمل اللطمة الأولى وان تنجو سليما فوقعت يدى الى جانبي وأحسست أن روحي قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت الى مابين قدمي لارى ماسقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم أحسست كأن عظامي قداحترقت ولم يبق الا رمادها وخارت قوايے وعرتني حيرة وشككت في الحياة فجعلت أعدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا في عيني وجعلت أنظر الى المارين وهم ينظرون الى فارميهم بالحاظ المقت والكره لانى كنت أحسبهم يسخرون بي ويعرفون ماحدث لى ويفهمون سر روحي التي أهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن أرمي نفسي فيه ولكني هزأت بنفسي تلك النفس التي تفر من اللطام الى الحمام ثم ذهبت الى البيت . . . وخطرلى ( أن أثأبط سكينا أومسدسا وان أنتقم من ذلك الشقي فأقتله ) ولكن الحزم والجبن وهما سميراى ونصيحاى الاحالى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض اسناني من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت في حالة من حالات ( الجنون ) اه

على انه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات قال في ص ٩٨

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت ان يبدا اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر مغشيا عليه منها ولكني خفت ان افقأ عينه اوان اصيب احد اعضائه بتلف دائم اوان تكون ضربتي هي القاضية فتعود باللطامة وبالعقاب الشديد كل هذه الخواطر جالت في ذهني عند ماسددت يدى لألطمه ومن اجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى انه لم يخش ماخشيت من العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطمأته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح »

***

وقلنا عن شكرى انه ابكم فكأننا اخترعنا شيأ وحسب البعض ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبالى اين وقع من الحقيقة اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة في ايجاعه وتنقصه والزراية عليه ولهم العذر اذما ادراهم انه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات

« انى في خلوتى بنفسى أعد الكلام البليغ والحجج الراجحة والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد في كلامي هذه الآيات البينات. ثم اذا خلوت بنفسى بعد ذلك أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا وكذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أى مزية فى ان يكون المرء ( عييا ) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟؟ وهذا سبب من اسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس ( سكوتى ) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة »

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر او المحزون أو قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص قال في صفحة ٤٧ من الاعترافات : —

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جرأة أترابى من الغلمان ( وحسن لهجتهم ) واعجب بها واتمنى ان اكون مثلهم . اذكر ان ابى زارنى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن في عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا ( بفصاحة وطلاقة ورشاقة ) اعجب بها الحاضرون وصاروا ينظرون الى و يضحكون »

ولا نظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنون » في شعره بعد اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وأنه وصل الى اعماقه وانه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون انهم مجانين

وفي الناس كذابون حتى على انفسهم ولكنا عاشرنا شكري اعواما طويلة وخالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ في شيء مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خاطئه وملابسيه . ولا يمكن ان يقال في الرد علينا

وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها رجل آخر اسمه م . ن وان شكرى ليس الاناشرا لهـا فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة من المقالات لا يربطها شيء الا ضمير المتكلم وقد نشر شكرى أكثرها فى « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على انها له ثم عاد فجمعها في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة فى أثنائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الابيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون الى هذه الاعترافات وتصديقها انه يجد مصداقها في شعره فكما انه قال في الاعترافات ان في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره « فقد أغرم الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيها الى الخير والشر  دواع طويلة الاغفاء

وقال مغترفا انا اليوم برئ ولكنى ربما كنت في غد مجرما ومن شعره

ربما شب بين جنبيك للشر  ضرام ما ان له من فناء
انت في اليوم واسع الجاه غض ال  خير لدن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دماء قتيل  أبيض الطبع لم يشب برياء
ربما كنت في غد أشعث الطب  ع لئيم الخصال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو  طائر الضغن ثائر الشحناء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل وأوردنا نبذاً من اعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة الغادرة » وهى قصة امرأة أرادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد أفرغت لى السم في كوبي  وقامت تمر غير بعيد
ثم غافلتها وافرغت كوبى  فوق ماء بكوبها منزور
ثم نلنا من الطعام بلاغا  وشربنا برءا من التصريد

ثم جاء اليوم الجديد فنامت زوجى الرود نومة المقبور
فعـل السم فعله فى حشاها ودهاها من الردى بقيود

ومنها قصيدة عنوانها « ام اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها يبرر هذه الجناية لأنه فرمن الحرب قال وقد نسى انه هو أيضا جبان حتى في مواطن « الاطام »

أيها الخائن الجبان خشيت الـ ـموت والموت حادث مقدور
ان اما تعزي لهـا قتلت في قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »

* قـد قبلتنى قبـلة مرة كأنها من حمة العقرب *
تنهش جاها لم يكن نهـزة لشاحـذ الأنياب والمخلب
لولا وميض الزأي يقتادنى يعيذنى من سفه المغضب (!!)
جلتها بالسـيف أمحو به الـ ـذنب بذنب رائع معجب

وتأمل فى هـذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف انه يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم

أطيلوا حياة الجارمين فانهـا حياة اذا سـد المطامع عاقر
لقد أخلقتهم بلغة العيش برها زمانا وحاجات الحياة غوادر
فبئس حياة المرء والفقر عاكف عليه وأسـباب الحياة جرائر
هنا لك انى للفقير لعـاذل وانى له ممـا يعانيـه عاذر

كأن كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة ! وله عدا ذلك أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه

فلو كنت بين الناس ربا معززا ونادوك أنى فاتك النفس جارم
لأنفيت غفرانا لديك ورحمـة فمـا يغفر الزلات الا الاعاظم

وقوله :

رحت أسعى كمصحر بان عنه الـ ـصحب فردا ذا وحشة واطراح
أو كذى الجرم حين طال به السجن يضـل الطريق عنـد السراح

وقوله :

كأن هموم المرء ذئب مراوغ فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفي اعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في شعره

يرى الناس ان النوم أم رحيمة ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على الحلم اسياف نقمة فاحلام نومي كالجحيم عذاب
وكم هد من عزم صليب عذابها وشيب وراد الذنوب فشابوا

ومنها

وغيرني عما عهدت جرائري فليس الى الحال القديم ايابي
فلا تحسبن الشر يمحى بتوبة وان غفر الجرم العظيم متاب
يواقع كل الناس بانكر شرهم وقد عابني أني جرؤت وهابوا
وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسه وذاك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه فى اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء وكذلك فعل في هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلا ولكن ورد الجارمين سراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مأثما

وان بقلبي من جفائك (جنة) فان رام يوما قتلكم ما تأثما
فاسقى جنوني من دمائك جرعة وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقى من شك فى ان الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هى صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في الفطر السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا ؟ اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حاله شعر سليم ؟ كيف والطبع اعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

ابرهيم عبد القادر المازنى